المبحث الثاني

المكان المرفوض (المعادي)

هو المكان الذي أجبرنا على العيش فيه ولا نشعر تجاهه بأي ألفة بل الشعور نحوه بالعداء والكراهية ولعل من أبرز هذه الأماكن هي السجون والمعتقلات [١].

والسجن هو أول الأماكن العدائية فهو ((بؤرة الحصار المكاني بل ويمكن عده نقيضا لباقي الأمكنة إذ يظل معبرا عن حضور الموت والقمع وتسييج الذات ومحاصرتها ماديا، وإذا كانت الأمكنة الأخرى تحاصر الذات معنويا وفكريا بحصار تعيشه هذه الذات على مستوى الوعي، فإن حصار السجن فضلا عن ذلك حصار مادي يعاش فيه على مستوى الجسد كفعالية حيوية و هو تصعيد لمفهوم العقوبة بخلاف الأمكنة الأخرى التي تعد تعبيرا عن حضور الروادع الاجتماعية المتعارف عليها)) [٢]. وهذا المكان حفز الشعراء وأيقظ ملكاتهم الشعرية، ليعبروا عما يقاسونه من الآلام والمعاناة وهذه المعاناة تضعف وتقوى حسب نفسية كل شاعر ومدى قسوة الظروف التي تمر به داخل السجن لذلك فأشعارهم في ذلك المكان هي انعكاس نفسي لحالة الشاعر.

وكثيرا ما شكى الشعراء من ذلك المكان و هذه ((الشكوى حاجة نفسية منبعثة من نقص حاجة وإذا كان الطليق من الناس يشكو فحري بمسلوب الحرية أن يشكو، ليجد في شكواه متنفسا يخفف من ثقل القيود التي ألمت به)) [٣] و شعر السجون والشكوى منه قديم قدم الشعر الجاهلي، فقد دخل العديد من الشعراء إليه فجادت

---

(١) ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق، ١٢٧؛ شعرية المكان في الرواية الجديدة، ١١١.

(٢) الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، د. إبراهيم جنداري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠١م، ٢٤٢.

(٣) شعر السجون في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هادي مدح زغير (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٦م، ١١٧.

قرائحهم بما يعبر عن تلك المعاناة [١].

وكان من الطبيعي أن يكون للشعر الأندلسي نصيب وافر من هذا اللون لا سيما في فترة الفتح (٩٢-٤٢٢هـ) وأرجع الدكتور إحسان عباس بروز هذا اللون من الشعر إلى ((الصراع السياسي واشتراك الشاعر في الحياة السياسية وتقلباتها، وامتزاج السياسة والشعر في شخصية واحدة، واضطراب حبل الأهواء من حال إلى حال، في فترات متقاربة)) [٢] زيادة على ذلك يمكن أن نرجع بروز هذا اللون من الشعر إلى المؤامرات وسعايات الحساد والوشاة والتنافس على هبات الأمراء، مما يدفع الحساد إلى الإيقاع بالشعراء وتوغير صدر الحاكم عليهم، والإلقاء بهم في غياهب السجون. فضلا عن الجرائم الدينية والدنيوية التي توجب إدخال مرتكبها السجن.

وشعر السجون يصور لنا ((نفسية الشاعر السجين قلقة حائرة تتأرجح بين تيارات نفسية متضادة فهي مرة ثائرة أبية ومرة خانعة ذليلة)) [٣]. ومن داخل ذلك المكان بث شعراء الأندلس آلامهم وأحزانهم والتفجع لما أصابهم فهذا هشام بن عبد العزيز [٤] يرسل من سجنه أشعاره المؤثرة إلى جاريته (عاج) حيث يقول:

وإنـــي عـــداني أن أزورك مطيـــق	وبـــاب منيـــع بالحديـــد مضـــبب
فـإن تعجبـي يـا عـاج ممـا أصـابني	ففـي ريـب هـذا الـدهر مـا يتعجـب
وفـــي الـــنفس أشـــيا أبيـــت بغمهـــا	كـــأني علـــى جمـــر الغضـــا أتقلـــب
وتركـت رشـاد الأمـر إذ كنـت قـادرا	عليـه فلاقيـت الـذي كنـت أرهـب

(١) ينظر: أدباء السجون، عبد العزيز الحلقي، دار الكتاب العربي، (د.ت)، ١١.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. إحسان عباس، ط١، ١٩٦٠م، ٧٨.
(٣) شعر السجون والأسر في الأدب العربي (بحث)، د. هادي الحمداني، مجلة كلية الآداب، ع١٣، ١٩٧٠م، ٥٦٣.
(٤) هشام بن عبد العزيز بن هشام يكنى بأبي خالد، كان وزيرا للأمير محمد بن عبد الرحمن الذي حكم بين ٢٣٨-٢٧٣هـ واستمر في مكانته حتى نكبة الأمير منذر بن محمد وقتله الأمير ٢٧٣ هـ لأشياء حقدها عليه بعد أن سجنة. ينظر: جذوة المقتبس، ٥٨١/٢؛ الحلة، ١٣٧/١-١٤٢؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ١٣١/٤.

وكم قائل قال أنج ويحك سالما ... ففي الأرض عنهم مستزاد ومذهب
فقلت له إن الفرار مذلة ... ونفسي على الأسواء أحلى وأطيب
سأرضى بحكم الله فيما ينوبني ... وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن بك مسرورا بحالي فإنه ... سينهل في كأسي وشيكا ويشرب [1]

فالشاعر يصف لنا باب السجن (المضبب) بالحديد أي الملبس به ويناجي جاريته، لأنه يجد في هذه المناجاة ما يخفف من عبء المصيبة الواقعة عليه في ذلك المكان و هذه المناجاة تعكس لنا معاناة السجين وقسوة ذلك المكان ومنعته، وعلى الرغم من هذا كله، فإن الشاعر ذو همة عالية أبى أن يفر قبل أن يقبض عليه فاستسلم لقضاء الله راضيا بما كتب عليه.

وإلى هذا الأسلوب الشعري لجأ سعيد بن جودي [2] (ت:٢٨٤هـ) حين قال:

خليلي صبرا راحة الحر في الصبر ... ولا شيء مثل الصبر في الكرب
فلا تيأسا من فرحة بعد ترحة ... للحر
فكم من أسير كان في القد موثقا ... وأن تبأيا باليسر من بعد عسر
لئن كنت مأخوذا أسيرا وكنتما ... فأطلقه الرحمن من حلق الأسر
ولو كنت أخشى بعض ما قد أصابني ... فليس على حرب ولكن على غدر
فقد علم الفتيان أني كميها ... حمتني أطراف الردينية السمر
فيا ضاعنا أبلغ سلامي تحية ... وفارسها المقدام في ساعة الذعر
وأد إلى عرسي السلام وقل لها ... إلى والدي الهائمين لدى ذكري
عليك تحياتي إلى موقف الحشر

(١) الحلة السيراء، ١/١٤٠-١٤١.
(٢) أبو عثمان سعيد ين سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي، يتصل نسبه بأسرة تعرف بالرياسة، وكان من أعوان الزعيم سوار بن حمدون، خاض عدة معارك حتى سقط أسيرا. وقيل: قتل سعيد غيلة و غدرا سنة ٢٨٤ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ١/٣٥٦؛ بغية الملتمس، ٢/٣٩٣.

بهمــك ألقــي خــالقي يــوم مــوقفي وكربك أقضي لي من القتل والأسر
وإن لــم يكــن قبــر فأحســن موطنــا من القبر للفتيان حو صلة الذسر [1]

فالشاعر يفتح نصه بالرمز التقليدي بخليلي، ليحاول من خلاله بث لواعجه ومشاعره وآهاته التي كثرت، فمن نكوص من الخلان والأقارب إلى السجن والأسر إلى القبر والزوال.

ويوفق سعيد بن جودي في هذه الافتتاحية فيوسع الشكوى ويعرج على ذكر المصائب التي حلت به وهو في هذا يبغي جانبين هما الأول التوسع في إسهاب الكلام عن مشاعره وخيبة أمله فهي ناحية شكلية غاية الشاعر منها إبراز ما يمكن إبرازه من تجاربه الشخصية ونقلها إلى المتلقي عبر هذه الوثيقة النفسية – الشعر – والجانب الثاني هو استيعاب تفعيلات الطويل نحو القافية السهلة الشائعة الورود - الراء – ناهيك عن حسنه في استخدام الطويل في هذه الشكوى فهو بحر ((يمتاز بالرصانة والجلال في نغماته وذبذباته المنسابة الهادئة لذا فهو أصلح البحور لمعالجة الموضوعات الجدية التي أكثر منها العرب)) [2].

والمكان غير خاف عن مشاعر سعيد وألفاظه، فكلمات الأسر شائعة في النص هنا وهناك، ولا شك أنها حالة نفسية لا تجد بدا من تكرارها كلما سنحت الفرصة للتعبير عن مشاعر الرفض والكره والعداء وربما جاء سعيد بن جودي بالقبر في نهاية الأبيات ظنا منه أن قد يخفف عنه بلواه وشكواه لا سيما وأنه متأكد من مصيره لا مفر منه إن أحسن من القبر، ليضم جثمانه هي حواصل النسور، ولا يخفى أن

(١) سعيد بن جودي السعدي الألبيري الأندلسي سيرته ومجموع شعره، تأليف: د. محمد رضوان الداية، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧م، ٨٤-٨٥.

(٢) شرح تحفة الخليل في العروض والقوافي، د. عبد الحميد راضي، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط٢، ١٩٧٥م، ١٠٤.

الشاعر الأندلسي ما زال يتابع ذلك التقليد المشرقي الذي يرى أن عادة الفرسان أن يموتوا في المعارك وأن تكون قبورهم بطون النسور ... فالجودي بعد كل هذه المشاكل لا يرى منازعا من إسباغ صفات الفخر والهمة والشجاعة على نفسه، ولا يلبث أن يرضى بمكانه والمصير الذي آل إليه، وأن يعرف به كمكان مذموم فيهجوه ويصب عليه جام غضبه كلما وجد الطريق سانحا والفرصة مواتية له.

إن هذا المكان كان الدافع الأهم في نظم النص والجالب لذلك الألم وتلك الشكوى، كما أنه المستدعي لهذا الفخر والمدح، فعليه – المكان المعادي – يكون الذم والعداء وفيه تنتج مثل هذه القصائد القيمة في المشاعر والدلالات.

إن المكان المعادي – السجن – تعبير عن تجربة ألم عانتها النفس الأسيرة المعذبة فالشعراء ((وصفوا حالاتهم النفسية من ضمن وصفهم للسجون والمنافي، وذلك لأن شعر السجون يكون أغلبه وصفا وتصويرا لحالة الشاعر وما يلاقي في ذلك السجن من عناء وألم القيود)) [1] حيث ينفث الأنفاس والزفرات الملتهبة الناتجة عن وحشة المكان فتتلاشى عنده الآمال ويضيق ما رحب به المكان فينقلب ماضيه السعيد وآياته الجميلة إلى أشواك تدميه وتحيل ألوان الحياة إلى سواد قاتل وإلى هذه المعاني ذهب الوزير عبد الملك الجزيري [2] (ت:٣٩٤هـ) بقوله:

ألوي بعزم تجلدي وتصبري ... نأى الأحبة واعتياد تذكري
شحط المزار فلا قرار ونافرت ... عيني الهجوع فلا خيال يعتري
أزري بصبري وهو مشدود القوى ... وألان عودي وهو صلب المكسر
وطوى سروري كله وتلذذي ... بالعيش طي صحيفة لم تنشر
هلا بما ألقى الحبيب توهما ... بضمير تذكاري وعين تفكر بي

(١) شعر الأسر والسجون الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، حازم شاحوذ الهيتي (رسالة ماجستير)، كلية التربية، جامعة الأنبار، ١٩٩٦م، ٣٨.

(٢) عبد الملك بن إدريس الجزيري يكنى بأبي مروان، كان عالما وأديبا ومعدودا من أكابر البلغاء ومن وزراء الدولة العامرية، وكاتب المنصور بن أبي عامر ثم ولده المظفر عبد الملك، سجنه المظفر وقتله بعد ذلك عام ٣٩٤هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٤٤٤/٢؛ مطمح الأنفس، ٣٠؛ الصلة، ٥٢٢/٢.

عجبــا لقلبــي يــوم راعتنــا النــوى ودنــا وداعــك كيــف لــم يتقطــر [1]

فهذه الأبيات اتسمت بطابع الشوق والحنين، فقد انهار صبره وتجلده في هذه المصيبة، والذي قضى عليه هو ابتعاده عن الأحبة إلى جانب مصيبته في السجن، فهذا المكان قد أبعد الزوار وأبعد النوم عن عينيه فهو لا يرى الأحبة حتى في المنام فالسجن قد ألان عوده وطوى سروره وأيامه الخالية السعيدة مع الأحبة مما يدفع إلى توهم لقاء أحبته مسترجعا ذكرياته.

ويبدو أن الوزير قد ضاق ذرعا بالسجن فرسم لنا ذلك المكان وبدلالة موحية إلى قساوة الحياة داخل هذه الأمكنة وشدة معاناته فيها وتأثره الكبير لما لقي فيه فيصف لنا الريح التي تهب في السجن بأنها ريح صرصر عاتية باردة تحمل الشر والبؤس والقساوة حتى أوصلته ورمته تلك الرياح في أحضان العجز والاستسلام فراح يقول:

في رأس أجرد شاهق عالي الذرى مــا بعــده لموحــد مــن معمــر
يــأوي إليــه كــل أعــور نــاعق وتهــب فيــه كــل ريــح صرصــر
ويكــاد مــن يرقــى إليــه مــرة فــي عمــره يشكو انقطاع الأبهر [2]

فهذا المكان المنقطع عن العالم يصوره الشاعر مكانا للغربان الناعقة فكيف يعقل لبشر أن يصل إليه، فضلا عن ذلك فإن هذا الوصف أظهر فيه قساوة المكان ووحشيته.

وينتاب الجزيري شعور غريب في ذلك المكان حيث أحس بأن الخروج من هذا

(١) يتيمة الدهر، للثعالبي، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ١١٧/٢؛ وينظر: مطمح الأنفس، ٣١-٣٢.
(٢) مطمح الأنفس، ٣١.

المكان شيء مستحيل، لذلك لجأ إلى ألفاظ فلسفية ممتزجة بالحكمة فيرى أن العلم أرفع مرتبة يمكن أن يصلها الإنسان فيقول:

واعلم بأن العلم أرفع رتبة ... وأجل مكتسب وأسنى مفخر
كم من أخ يلقاك منه ظاهر ... باد سلامته وباطنه وري
واشرح لكل ملمة صدرا وخذ ... بالحزم في كل الأمور وشمر
واستنصح البر النقي وشاور الـ ... ـفطن الذكي تكن ربيح المتجر[1]

و هذه الرؤية مردها إلى السجن و ما رأى فيه من قساوة و شدة وتقييد للحرية فصاغ هذه الألفاظ والمعاني، لتعبر عن تلك التجربة وما يختلج في صدر الشاعر من مشاعر وأحاسيس.

ويترك المكان المعادي – السجن – أثره في نفسية الجزيري وبما تجسد فيه من رهبة ووحشة وعدائية دفعت به إلى أن ينظم أبياتا محاولا فيها إيهام نفسه الحزينة بأن الذي بينه وبين المنصور مجرد جفوة محاولا تخفيف العبء عليه من خلال هذه الأبيات:

قالوا جفاه ثلاثا ثم غر به ... فليس يرجو لديه خطوة أبدا
جاروا وما عدلوا في القول بل ... حكموا على المقادير جهلا لأهدوا رشدا
وما المهذب إلا من تعرفه ... زمانه مخطئا طورا ومعتمدا
من لم يذق طعم بؤساه وشدتها ... لم يدر لذة نعماه ولا وجدا [2]

ونلمس في هذه الأبيات طابع الحكمة ولا سيما في البيتين الأخيرين فمن لم يقاس و يذق طعم البؤس لم يعرف طعما للذة، و هذه كلها أنفاس بثها للتخفيف عن

(١) يتيمة الدهر، ٢/١١٧-١١٨.
(٢) أعتاب الكتاب، ابن الأبار أبو عبد الله محمد (٦٥٨ هـ)، تح: د. صالح الأشتر، ط١، ١٩٦٦م، ١٩٤.

اليأس الذي انتابه في ذلك المكان.

ويحن الشاعر وهو في سجنه إلى مواطن اللهو والحرية وهذا الاختلاف في المشاعر راجع إلى امتزاج عواطف الخوف بالأمل، واليأس بالرجاء، للخلاص من هذا المكان فتكون ثمرتها شعرا تتجسد فيه صدق العاطفة[١]. وهذا ما نلمسه عند الشاعر أبي الإصبغ حين قال:

رويدك أيها الشوق المذكي ... لنار صبابتي بالمهرجان
لقد أذكرت مني غير ناس ... وهجت لي الصبابة غير وان
أيوم المهرجان أعذرا فحالي ... تراها في البلاء كما تراني
ولو لم ينثن طيف وقيد ... لرحت وقيد لي قصب الرهان[٢]

فمشاعر الحزن التي انتابته، راح يتذكر من خلالها أيامه السالفة التي كان يلهو فيها لكن هيهات لهذه الأيام أن تعود فقد ضم السجن جسده وقيد بالأغلال، ومنع من قصد المهرجان وأيام اللهو.

ويصف لنا أبو الإصبع[٣] شدة ضيق السجن وظلامه حيث يتساوى فيه الليل والنهار فينقل لنا صورة ذلك المكان المؤلمة وما فيها من الأسى والتوجع فيقول:

ليت شعري كيف البلاد وكيف الـ ... أنس والوحش والسما والماء
طال عهدي عن كل ذاك وليلي ... ونهاري في مقلتي سواء
ليس حظي من البسيطة إلا ... قدر قبر صبيحة أو مساء
وإذا ما جنحت فيه لأنس ... أوحشتني بأنسها الأغبياء[٤]

(١) ينظر: شعر السجون في الأندلس في القرنين الثالث والرابع الهجريين (دراسة فذية)، د. نزهة جعفر حسن، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، ع١٢، ١٩٩٣م، ١١٤.
(٢) جذوة المقتبس، ٤٥٦/٢.
(٣) عيسى بن الحسن كان من شعراء الدولة العامرية وكان ممن باطن عبد الله بن المنصور بن أبي عامر فلما ضرب أبوه عنقه سجن أبا الإصبغ. ينظر: المغرب، ٢١٢/١.
(٤) المغرب، ٢١٢/١.

لقد أرهق السجن كاهل الشعراء، فهذا المصحفي كان أشد معاناة ((فبقي سنين في مهوى النكبة وجوى تلك الكربة بنقلة المنصور معه في غزواته ويعتقله في أظفار التضييق أو في لهواته، وهو يستعطف ويستميل فلا يتحقق له رجاء ولا تأميل إلى أن تكورت شمسه، وقاضت بين أنياب المحن نفسه)) [١] فراح يبث شكواه بأشعار تفيض حزنا من ذلك المكان الذي عانى قسوته وشعر تجاهه بالعداء وكان هذا الإحساس منذ أن سبق به إلى مجلس الوزارة للمحاسبة حيث يقول:

لا تـــأمنن مـــن الزمـــان تقلبـــا ... إن الزمـــــان بأهلـــــه يتقلـــب
ولقـــد أرانـــي والليـــوث تخـــافني ... وأخـــافني مـــن بعـــد ذاك الثعلـــب
حســـب الكـــريم مذلـــة ونقيصـــة ... ألا يـــزال إلـــى لئـــيم يطلـــب
وإذا أتـــت أعجوبـــة فاصـــبر لهـــا ... فالـدهر يـأتي بالـذي هـو أعجـب [٢]

فهو يرى أن الزمان متقلب فلا يغتر الإنسان بزخرف الرخاء والنعيم، لأن نكبات هذا الدهر نازلة بالإنسان لا محالة، ورامية به في مكان الرذيلة والمآسي.

وأخذ المصحفي في نكبته يعزي نفسه، متحليا بالصبر، متذكرا أيام العز والترف حيث يقول:

صـبرت علـى الأيـام لمـا تولـت ... وألزمـت نفسـي صـبرها فاسـتمرت
فـوا عجبـا للقلـب كيـف اعترافـه ... وللـنفس بعـد العـز كيـف اسـتذلت
ومـا الـنفس إلا حيـث يجعلهـا الفتـى ... فـإن طمعـت تاقـت وإلا تسـلت
وكانـت علـى الأيـام نفسـي عزيـزة ... فلمـا رأت صـبري علـى الـذل ذلـت
فقلـت لهـا يـا نفـس مـوتي كريمـة ... فقـد كانـت الـدنيا لنـا ثـم ولـت[٣]

(١) البيان المغرب، ٢٥٦/٢.
(٢) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ١٨٠.

فذلة ذلك المكان واضحة ويعترف بتلك الذلة بعد العز والرفاه الذي تمتع به ويعترف بأنه لم يعد يستطيع إلا أن يكون ذليلا، لأن صبره على الذل المتواصل أذل نفسه وأهانها. واستطاع المصحفي إظهار التلاحم والاندماج بين الزمان والمكان، فالزمان متجسد بالعودة إلى الماضي وتذكر أيام عزه، أما المكان فيتمثل من خلال العداء والرفض الذي فرضه المكان على الشاعر.

والمخطط الآتي يوضح جدلية المكان والزمان على الذات الشاعرة السجينة:

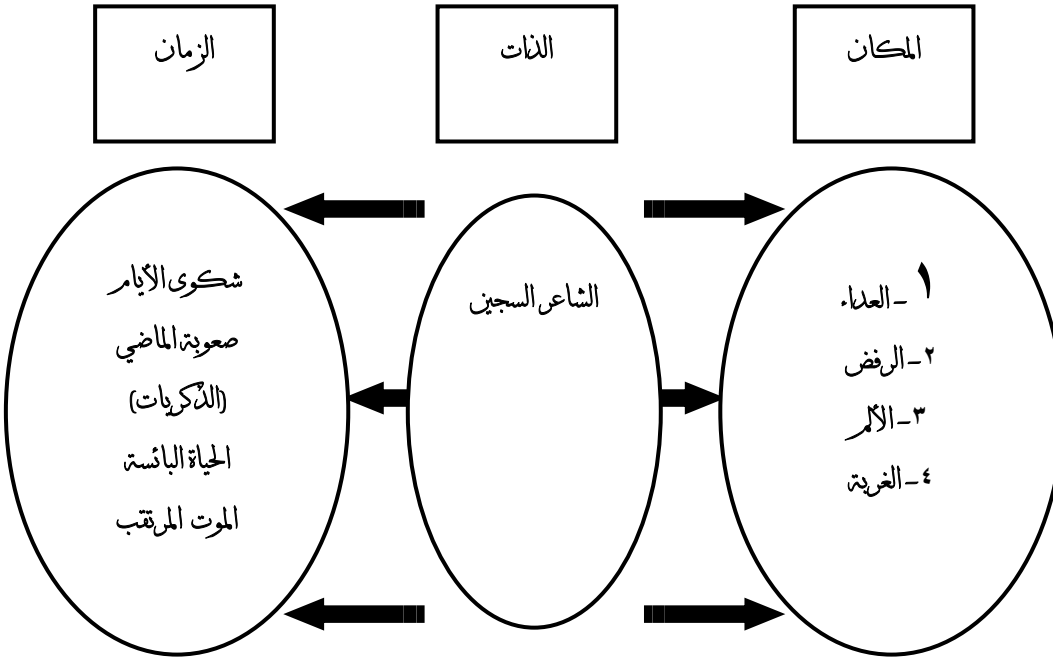

إن السجن مكان مخيف يثير الرهبة في قلوب نزلائه فيلج هذا النزيل إلى تذكر أيامه السالفة، لعله يجد فيها ما يقلل من رهبة هذا المكان، و هذا الشعور نلمس إثارة في قول المصحفي:

تأملت صروف الحادثات فلم أزل ... أراها توفي عند موعدها الحرا
فلله أيام مضت لسبيلها ... فإني لا أنس لها أبدا ذكرا
تجافت بها عنا الحوادث برهة ... وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
ليالي لم يدر الزمان مكاننا ... ولا نظرت منا حوادثه شزرا
وما هذه الأيام إلا سحائب ... على كل أرض تمطر الخير والشرا

(١)

ويبدو أن المصحفي قد طال به الأمد في ذلك المكان وتضاعفت عليه الأقدار فراح ينظم إلى المنصور بن عامر أبياتا يصف فيها حاله وما وجد من مأساة حيث يقول:

عفا الله عنك إلا رحمة ... تجود بعفوك إن أبعدا
لئن حل ذنب ولم أعتمده ... فأنت أجل وأعلى يدا
ألم ترا عبدا عدا طوره ... ومولى عفا ورشيدا هدا
ومفسد أمر تلافيته ... فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلني أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى(٢)

إن عددا من الألفاظ الموحية بالحزن والمعاناة والمأساة قد ترددت في هذه الأبيات ومنها (إلا رحمة، عفوك، عبدا عدا، أقلني) وغيرها من الألفاظ التي تنم عن إحباط النفس والإذلال وانعكاس لآلام نفسه المقيدة في ذلك المكان المرهب.

(١) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، ١٨٤.
(٢) المصدر السابق، ١٨١.

ويبلغ المصحفي أن قوما قد توجعوا وتفجعوا مما وصل إليه حاله[1] فكتب إليهم قائلا:

أحـــن إلـــى أنفاســـكم فأظنهـــا بواعـــث أنفـــاس الحيـــاة إلـــى نفســـي
وإن زمانـــا صـــرت فيـــه مقيـــدا لأثقل من رضوى وأضيق من رمس[2]

إنها معاناة قد أثخنت جراحها وأصبحت عليه هذه المعاناة كالجبال ثقلا والقبور ضيقا، وينفذ صبر المصحفي فيكتب أبياتا إلى المنصور نجد فيها نبرة الجدية في طلب العفو حيث يقول:

هبنـي أسـأت فـأين الفضـل والكـرم إذ قـــادني نحـــو الإذعـــان والنـــدم
يـا خيـر مـن مـدت الأيـدي إليـه أمـا نرثـــي لشـــيخ نعـــاه عنـــدك القلـــم
بالغـت فـي السـخط فاصـفح صـفح مقتـدر أن الملـوك إذا مـا اسـترحموا رحمـــــــــــــــــــــــــوا [3]

ونجد عبد الله بن عبد العزيز[4] (٣٩٠ هـ) أحد من عاش تجربة ذلك المكان وأضناه وضاق به ذرعا، فقال به أبياتا يستشفع بالحاجب عبد الملك إلى أبيه المنصور بن أبي عامر، ليطلق سراحه قائلا:

ألا أيهـــا الحاجـــب المرتجـــى وأكـــرم مـــن كـــان أو مـــن يكـــون
دعوتـــك دعـــوة مستصـــرخ أحاطـــت بـــه وأثخنتـــه المنـــون

(١) ينظر: مطمح الأنفس، ٢٢.
(٢) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، ١٨٦، رضوى: جبل بالمدينة المنورة.
(٣) المصدر نفسه، ١٩٦.
(٤) عبد الله بن عبد العزيز القرشي من أولاد الحكم الربضي لقب بالحجر، اتهم بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن أبي عامر في مؤامرة ضد أبيه لم تنجح فسجنه المنصور في المطبق، وكان شاعرا وأديبا، توفي (٣٩٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٤١٥/٢؛ البغية، ٤٤٩/٢؛ الحلة السيراء، ٢١٦/١.

فـــإن لـــم تغنـــي فمـــن ذا الـــذي يلـــوذ بـــه الخـــائف المســـتكين[1]

فألفاظ الشاعر المتمثلة (بدعوة مستصرخ، أحاطت به المنون، يلوذ) كلها ألفاظ تنم عن شدة معاناة الشاعر وما يقاسيه داخل السجن فجعلت منه ينفث هذه الألفاظ بعاطفة صادقة ملتهبة بالحرارة.

ويرسم لنا الشريف الطليق صورة مرهبة للمطبق [2] الذي ألقي فيه حين قال:

فـــي منـــزل كالليـــل أســـود فـــاحم داجـــي النـــواحي مظلـــم الأثبـــاج
يســـود الزهـــراء تشـــرق حولـــه كـــالحبر أودع فـــي دواة العـــاج[3]

فهنا يركز الشاعر في رسم هذا المكان على الألوان لا سيما الأسود الذي هو رمز العداء والظلمة والوحشة والتفرد، وهل تصدق هذه الألوان إلا على السجن ؟ أو هل يزداد المرء كراهية وحقدا إلا له ولمن أدخله بين قضبانه وحديده ؟ فالشرف يوسع في هذه الظلمة وذلك السواد، ولعل الألفاظ في البيت الأول تكفينا هما إذا ما أردنا التعرف على حقيقة ذلك المكان:

منزل – الليل (اسود فاحم) داجي النواحي + مظلم الأثباج

ولا يكتفي الشريف بكل هذه الألفاظ الدالة على لون واحد هو السواد بل يأتي بالبيت الثاني، ليوسع ذمه لمكانه ويترك في سواد وحداد جالبا له ما يميزه من حيث إنه المسود وسط إشراق قصر الزهراء (كأنه الحبر أودع في دواة العاج) ولا يخفى أن التشبيه الحاصل في الشطر الثاني من البيت الثاني ترجم كل تلك المشاعر. فالشريف رغب أن تكون معاناته خاصة بهذا المكان (المطبق) وبدا متحسرا جدا،

(١) الحلة السيراء، ٢١٩/١.
(٢) من سجون الأندلس يقع تحت الأرض في مدينة الزهراء وسمي ببيت البراغيث. ينظر: البيان المغرب، ٢٧٠/٢؛ المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ٣٢٥، وينظر: قصر الزهراء في الأندلس، ٥٦.
(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبي، ٧٨.

لأنه وقع في هذا المكان المحبب (الزهراء) فأراد أن يستثني هذا الأخير على أن لا يبعد كثيرا عما جال من عداء وذم، وما صرح به من ألفاظ عكست تجربته منذ أول كلمة.

وتنساق هذه المعاناة من السجن بألفاظ ودلالات أخرى في قوله:

أصبحت في الدهر كالمعقول مختفيا ... عن العيون وما تخفى مفاهمه
كأنما السحر صدري في تضمنه ... شخصي وشخصي سرى فهو كاتمه
كأنما الدهر يخشى منه لي فرجا ... فمن قيودي على البلوى تمائمه (١)

إنها نظرة تأمل لصروف الدهر يبثها الطليق من ذلك المكان، وجاءت هذه الأبيات بعد طول المدة التي مكث بها الطليق حتى اختفى عن العيون، وضاقت به القيود، وأصبحت كأنها تمائم تحميه من الخروج.

ويعيش محمد بن مسعود البجاني تجربة ذلك المكان المرفوض لا سيما بعد أن فرق بينه وبين الأمير الطليق، فهو القائل:

ما أقبح الصبر عندي بعد فرقته ... يا نفس ذوبي عليه هكذا ذوبي
يا غائبا قد أطالت كف غيبته ... على لظى الشوق والأحزان تقلبي
تعجب القطر من عيني حين همت ... منها الشآبيب في إثر الشآبيب
عندي استقرت جنود الكرب أجمعها ... فلست تسمع من بعدي بمكروب
سجن وقيدوا أعداء منيت بهم ... لا يسأمون مع الأيام تشريب
في منزل مثل ضيق القبر أوسعه ... دخلته فحسبت الأرض تهوي بي
يحن عند مقاساة البلاء به ... قلبي إليك حنين الهيم والنيب (٢)

إنه يقبح الصبر بعد فراق الأمير، ويتقلب على جمر الغضى، ويصف حاله

(١) المصدر السابق، ٨٥.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٥٦٤/١/١.

بالمأساوي، فمن استقر عنده هم جنود الهم والحزن، فضلا عن ذلك المكان المرفوض (السجن) وقيد الأعداء وغيرها من المآسي ثم يشبه واسع سجنه بضيق القبور، ورغم مقاساة ذلك المكان، وما يعانيه حاله فإن قلبه مشدود إلى الأمير.

وبعد هذه المعاناة والآلام التي وجدها البجاني أخذ يتوسل إلى المنصور من خلال قوله:

دعوت لما عيل صبري فهل ... يسمع دعواي المليك الحليم
مولاي مولاي ألا عطفة ... تذهب عني بالعذاب الأليم
إن كنت أضمرت الذي زخرفوا ... عني فدعني للقدير الرحيم
فعنده نزاعة للشوى ... وعنده الفردوس ذات النعيم[1]

إنها نبرة حزن تكشف عن حال الشاعر وما وصل إليه حاله من ضعف وهوان ويجد في القرآن الكريم ما ينهل، ليخاطب المنصور من خلال البيت الرابع، ثم يطلب منه أن يترك حسابه لله فيعاقبه أو يثيبه.

ويصبح السجن لدى الرمادي معاديا لكونه مانعا طيف الحبيبة حيث يقول:

هبوا إن سجني مانعا من وصاله ... فما الخطب أيضا في امتناع خياله
نعم لم تنم عيني فيطرق طيفه ... زوال منامي علة لزواله
فدا الصب من لم ينسه في بلائه ... وينسى اسمه من كان في مثل حاله
ومن صار سجني قطعة من صدوده ... وطول اكتئابي شعبة من ملاله
ومن لم يشب شهدا بسم لطاعم ... إلى أن بدا لي هجره في دلاله
ولم تر عيني حاسدين تباينا ... عليه سوى قلبي وترب فعاله[2]

حيث أصبح المكان السجن – مانعا للنوم – وبالتالي مانعا لطيف الحبيب أن

(١) نفح الطيب، ٣٨٩/٣.
(٢) شعر الرمادي، ١٠٨.

يزوره، وقد عبر عما يجول في خاطره من أبيات لا تخلو من مسحة فلسفية ويبدو ذلك في ألفاظ (الزوال والعلة).

وبعد هذه المعاناة وقسوة السجن ونفاذ الصبر يبث الشاعر أنفاس الحزن والإرهاق ويستسلم للوشاة، ليبلغوا المنى في الشماتة، فهو القائل:

تكتفه همان شجوة وصبوة ... فبلغ واشيه المنى وعذوله
فإن يستبن في وجهه هم سجنه ... فقد غاب في الأحشاء عنك دخيله[1]

ويتدخل الزمان ليزيد من عدائية المكان ويتحدان معا لزيادة معاناة الشاعر يقول:

يعم فلا يألوا حصارا لعله ... سيودي فيودي بثه وأليله
فلو كان في هذا الحصار سميه ... لأنساه طول السبع في اليوم طوله[2]

فطول النهار في السجن قد فاق طول السنوات السبع التي أشار إليها القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام جاعلا من هذا الوصف تعبيرا عن ضيق حاله. ويبدو أن الرمادي قد اسقط ما بيده فلم يبق لديه إلا التوسل والاستعطاف، لإخراجه من هذا المكان حيث يقول:

ويا سيدي عبد رجالكم معول ... عليكم ولا يجري سواكم ببالله
وهل يستعين المرء في قعر هوة ... لإخراجه إلا بأقوى حبالله
هل أبصرتموه شافعا بسواكم ... وأقبح بعد وهو في ضيق حاله[3]

فهو يحاول خلق وجدانية بينه وبين من يطلب منه النجاة فيجعله أول من يخطر

(١) المصدر نفسه، ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ١٠٣.
(٣) شعر الرمادي، ١١٠.

بباله وأقوى حباله التي يستعين بها للخروج من هذا المكان.

ويمر ابن شهيد في المحنة ذاتها، ويعاني قساوة ذلك المكان، ويبعد عن الأهل والأحبة، ويبث أحزانه من خلال قوله:

فـــراق وســـجن واشـــتياق وذلـــة ... وجبـــار حفـــاظ علـــي عتيـــد
فمـــن مبلـــغ الفتيـــان أنـــي بعـــدهم ... مقـــيم بـــدار الظـــالمين طريـــد
مقـــيم بـــدار ســـاكنوها مـــن الأذى ... قيـــام علـــى جمـــر الحمـــام قعـــود
ويســـمع للجنـــان فـــي جنياتهـــا ... بســـيط كترجيـــع الصـــدى ونشـــيد
ومـا اهتـز بـاب السـجن إلا تفطـرت ... قلـوب لنـا خـوف الـردى وكبـود[1]

فقد اجتمعت على شاعرنا زيادة على شدة سجانيه الغلاظ شدة فراق الأحبة ونار الشوق لهم والسجن وذلته ويريد أن يرسل رسالة لصحبه بأنه مقيم بدار الظلم على جمر الموت وقد أحيط بهذا السجن جو الخوف من الموت ورهبته تتفطر منها القلوب والأكباد.

إن الشاعر السجين كان يعرض واقعه وآلام واقعه فيتفجر غضبا وسخطا ويتحرق أسى ومرارة، لما هو عليه من إهمال وهوان، وابن شهيد يعرض لنا هذه المعاناة من خلال قوله:

وقلـت لصـداح الحمـام وقـد بكـى ... علـى القصـر إلفـا والـدموع تجـود
ألا أيهـا البـاكي علـى مـن تحبـه ... كلانـــا معنـــى بـــالخلاء فريـــد
وهـل أنـت دان مـن محـب نـأى بـه ... عـن الإلـف سـلطان عليـه شـديد
فصـفق مـن ريـش الجنـاحين واقعـا ... علـى القـرب حتـى مـا عليـه مزيـد
ومـــا زال يبكينـــي وأبكـــي جاهـــدا ... وللشـوق مـن دون الضـلوع وقـود[2]

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٠٠.
(٢) ديوان ابن شهيد، ١٠١.

هكذا كان موقف الشاعر الأندلسي من السجن أنه موقف عدائي رسم الحزن على وجوه أصحابه وترك أثره على نفسيته فمنهم من يبكي على الحياة ومنهم من ضاقت به السبل وراح يصرخ ويستعطف دون جدوى ومنهم من راح يصف حاله وصفا دقيقا ومعبرا عن نفسيته القلقة الحائرة فهو أشبه بكتلة من العواطف والانفعالات، من حين إلى آخر فكان متمردا في أول أيام سجنه متذمرا في أيام أخرى وهناك من وصف قساوة المكان وما فيه من وحشة ورهبة، ووصف السجن وأبوابه، وهناك من آثر السجن على نفسيته فسلك طريقا مصطبغا بالصبغة الدينية والرجوع إلى الله تعالى. بل وتحول السجن إلى باعث معاناة قاسية.

المبحث الثالث

الغربة المكانية والحنين في الشعر الأندلسي

كان فتح الأندلس حدثا تاريخيا عظيما يستحق أن يرسم له التاريخ أروع الصور والبطولات وكان فتح الأندلس ((أثناء حركة الامتداد الديني والفكري البشري التي بعثها الإسلام في عالم القرن السابع الميلادي)) [1] وكان هذا الحدث فاتحة خير للعرب والمسلمين.

ورافق هذا الفتح عدد لا يستهان به من العرب تركوا بلادهم وساروا نحو الغرب من أجل دافع ديني، إلا أن مشاعر هؤلاء كان لا بد لها أن تتأثر بذلك المكان البعيد عن الأصل (المشرق) فعاشوا هناك بأجسامهم، أما الروح فهي باقية في المشرق.

ورغم كل هذا استقر العرب في الأندلس، وحاولوا توطين النفس على اتخاذ الأندلس دارا دائمة، إلا أن هذه المشاعر كانت تنتابها غربة شديدة في ذلك المكان مردها إلى أن العربي في بداية الفتح ما زال ينتابه القلق والخوف على حياته فهو يعيش في بيئة محاطة بالأعداء هذا من جهة ومن جهة أخرى طبيعة هذه الجزيرة النائية المختلفة تماما عن الجزيرة العربية، سواء أكان من حيث المناخ أم من خلال

(١) فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥٩م، ٤١٧.